رسائل ابن زيدون الإخوانية

مصادرها وقيمتها الأدبية واللغوية

د. علي عبد الله النعيم*

الملخص

هذه دراسة في رسائل أبي الوليد أحمد بن عبد الله بن زيدون المتوفى سنة 463 للهجرة، وهو من الشهرة بحيث لا نحتاج أن نفيض في الحديث عنه، ولكنا نمهد للحديث عن رسائله بأقوال بعض القدماء عيه. يقول بن بسام: ((كان أبو الوليد غاية منثور ومنظوم، وخاتمة شعراء مخزوم، أحد من جر الأيام جرا، وفات الأنام طرا، وصرف السلطان نفعاً وضراً، ووسع البيان نظماً ونثراً))[1]. ويقول عنه بن خاقان. ((زعيم الفئة القرطبية ونشأة الدولة الجهورية))[2] وقال عنه ابن فضل الله العمري. ((كان في الأندلس متيم ذلك الحي وعاشق ولادة، تركه هواه أنحف من قلم وأشهر من نار على علم)) فهذه هي السمات العامة في حياة هذا الرجل، و أبرزها الجانب السياسي، وقد لخصه الصفدي في قوله: ((وكان أولاً قد انقطع إلى ابن جهور، أحد ملوك الطوائف المتغلبين على الأندلس، فخف عليه وتمكن منه، واعتمد عليه

• أستاذ مشارك كلية التربية– حنتوب جامعة الجزيرة .

[1] الشنتربيي، ذ ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، مطبعة التأليف والترجمة و النشر ، 1939م ، القسم الأول ، الجلد الثان ص

[2] قلائد العقيان ومحاسن الأعيان ، لابن خاقان ، تحقيق الدكتور حسين خريوش، ط I مكتبة المنار، الأردن ، 1989 ، ع (2) ، ص 209

السفارة بينه وبين ملوك الأندلس فأعجب به القوم وتمنوا ميله إليهم لبراعته وحسن سيرته، فاتفق أن نقم عليه ابن جهور فحبسه، واستعطفه ابن زيدون لفنون النظم))[1]

والرسائل التي ندرسها هنا متصلة أشد اتصال بحياة ابن زيدون السياسية، لصلاته بملوك الطوائف، وما جره عليه ذلك من خطوب ومصائب. ورسائل ابن زيدون هذه من نوع الرسائل الإخوانية [2]، على الرغم من أن بعضها قد جاء متأثراً بالرسائل الديوانية لأنها موجهة إلى بعض الملوك، ولكنها كانت في أغراض خاصة بابن زيدون، وليس بهؤلاء الملوك أو شؤون دولهم. ومهما يكن فهي تعبير عن عصرها، ومكانها.

واهتم القدماء بدراسة رسالتيه المعروفتين الجدية والهزلية و أفردوا لهما مؤلفات خاصة"[3]، وهذا حظ لم تنله الرسائل التي نكتب عنها. وقد كان لابن بسام الفضل في أن تصل إلينا،[4] وقد جمع الأستاذان كامل كيلاني وعبد الرحمن خليفة نصوص بعض هذه الرسائل من الذخيرة وألحقاها بديوان ابن زيدون،[5] وقد توفر بعض المحدثين أيضا على دراسة ابن زيدون، حياته وعصره وأدبه، كالدراسات الجادة"[6] التي كتبها الأستاذ علي عبد العظيم، وقد

---

[1] الوافي بالوفيات لصلاح الدين الصفدي. تحقيق الدكتور إحسان عباس . فيسبادن. 1969 ،ج7ص 88/78

[2] -الأدب العري في الأندلس، د. عبد العرير عتيق . ط 2 . دار النهضة العربية بيروت . 1976 . ص

[3] منها : تمام المتون في شر ح رسالة ابن زيدون للصفدي تحقيق مجمد أي الفضل إبراهيم القاهرة 1969 وسرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون لجمال الدين ابن نباته . تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم 1964م القاهرة

[4] الذخيرة 305:354/1/1

[5] ديوان ابن زيدون مع رسائله وأخباره وشعر الملكين، كامل كيلاني وعبد الرحمن خليفة، 1932م

[6] له كتابان: ابن زيدون: عصره، حياته، أدبه، القاهرة 1955 و ديوان ابن زيدون ورسائله، مكتبة نهضة مصر 1957

ألحق هذه الرسائل أيضاً بديوان ابن زيدون وكتب دراسة عنها، ثم تلتها الدراسة التي كتبها الأستاذ محمد سيد كيلاني،[1] وغيرهم

وتشير المصادر إلى أن لابن زيدون رسائل أخرى كثيرة غير الجدية والهزلية وأكثرها من الرسائل الديوانية، وقد أشار ابن بسام إلى مكانتها في قوله ((كانت الكتب تنفذ من إنشاد أبي الوليد بن زيدون إلي شرق الأندلس، فيقال. تأتي إشبيلية كتب هي بالنظم الخطير أشبه منها بالمنثور))[2]. ولم تنقل لنا كتب القدماء التي وصلت إلينا شيئا من رسائله الديوانية هذه على أهميتها التي أشار إليها ابن بسام.

أما الرسائل التي أوردها ابن بسام غير الرسالتين الجدية والهزلية فخمس رسائل، نبينها على النحو الآتي:

أولاً:

رسالته إلى أستاذه أبو بكر مسلم بن أحمد بن أفلح النحوي من أهل قرطبة، وقد أوردها ابن بسام في صفحة ونصف من كتابه وبدأها بقوله : ((وكتب إلى الأديب أبي بكر بن مسلم وهو مختف بقرطبة بعد فراره من السجن رقعة يقول فيها: ((أبدأ أو لا بشرح الضرورة الحافزة إلى ما صنعت إذ بلغني إنك أحد اللائمين لي عليه إلخ))[3]. ثم وردت الرسالة في الكتاب نفسه، ولعل شخصاً آخر قد أدخلها، وربما يكون من تلاميذ ابن بسام أو أحد قرائه، وعلى كل فهي يد غريبة على الكتاب، يقول صاحبها: ((وله أي لابن

[1] ديوان اب زيدون ومعه أحباره ورسائله ، ط (2) : 1956
[2] الذخيرة 1/1 /290
[3] الذخيرة 305:307/1/1

زيدون من رسالة حذف أبو الحسن رحمه الله هنا أكثرها ولم يذكر منها إلا قطرة من وابل، أو نفثة من سحر بابل، وهي أنا مثبتها على تواليها، إشادة لحسن معانيها، واستفادة من سني آدابه فيها وهي: يا سيدي الذي كنت أراه أعد عددي لأبدى ...))[1]. وعلى الرغم من أنه أوردها في عشر صفحات من الكتاب، فقد أوردها ناقصة بدليل قوله خلال الرسالة: "وهي فصل منها"[2].

وقد سمى الأستاذ علي عبد العظيم هذه الرسالة بالرسالة البكرية نسبة إلى كنية المرسل إليه[3]. وأحسب أنه من المفيد اعتمادها في البحث؛ حتى لا تختلط مع الرسائل الأخرى التي اتبع الأستاذ المذكور ذات النهج في تسميتها. وهذه الرسالة أطول أثر نثري كتبه ابن زيدون. على الرغم من أنها لم تصلنا كاملة

ثانياً: الرسالة المظفرية.

وهي رسالته إلى المظفر أبي بكر بن الأفطس صاحب بطليوس، وقد أوردها صاحب الذخيرة كاملة بدأها بقوله: وكتب إلى المظفر سيف الدولة أبي بكر الأفطس من رقعة وضمنها قصيدة "[4] وجاءت في ست صفحات من كتاب الذخيرة. وتدور الرسالة حول شفاعته عند الأمير لأحد أصدقائه.

[1] الذخيرة 344/1/1: 354
[2] المصدر السابق نفسه 347/1/1
[3] ديوان ابن زيدون مع رسائله ص 718
[4] الذخيرة 334/1/1- 338

ثالثاً: الرسالة العامرية:

وهي رسالته إلى صديقه أبي عامر بن مسلمة بإشبيلية ، كتبها من قرطبة، يمهد بها لتحوله إلى إشبيلية. وقد أوردها ابن بسام كاملة في صفحتين.[1]

رابعاً: الرسالة العبادية الأولى:

وهي رسالته إلى المعتضد بن عباد صاحب اشبيلية قبل أن يلتحق به، وقد أوردها صاحب الذخيرة في صفحتين[2]. وقد أرسلها إلى ابن زيدون بعد رسالته السابقة، يقول ابن بسام :((وكتب إثر ذلك إلى المعتضد رقعة يقول فيها : أطال الله بقاء الحاجب مولاي...)).

خامساً: الرسالة العبادية الثانية:

وهي رسالته إلى المعتضد بن عباد صاحب اشبيلية بعد أن صدر عنه إلى قرطبة. وقد أوردها صاحب الذخيرة في صفحة ونصف . [3]

فهذه جملة رسائل ابن زيدون غير الحدية والهزلية تقول الدكتورة وداد القاضي: ((وهذه الرسائل كلها متشابهة من حيث أنها تقع في نوع الرسائل التي هي صورة أدبية لحاجة لدي المؤلف وحكاية حال عنده، يبسطها أمام مخاطب بعينه يعنيه أمره وتربطه به وبموضوع الرسالة صلة ما))[4]

وتجيئ هذه الدراسة في أربعة مباحث وتمهيد وخاتمة ، أما التمهيد فهو الذي تقدم، أما المبحث الأول، فقد خصصته لدراسة الرسالة البكرية، فقد

---

[1] المصدر السابق 1/1338-340

[2] الذخيرة 1/1/341-342

[3] المرجع السابق نفسه 1/1/343-342

[4] دراسات في الأدب الاندلسي، د . إحسان عباس وآخرون، الدار العربية للكتاب ليبيا " عنس، 1976 ، ص 88— 89

حاولت تحليل نصها واستنباط الوحدات التي حوتها، وقسمتها إلى أقسام ليسهل درسها، ثم بينت مصادرها وقيمتها الأدبية واللغوية. واتبعت هذا المنهج في تحليل الرسائل الأخرى، ففي المبحث الثاني الرسالة المظفرية، وفي الثالث الرسالة العامرية، وفي الرابع الرسالتان العباديتان. وتكلمت في الخاتمة على تدرج فن كتابة الرسائل عند ابن زيدون كما استنتجته من هذه الرسائل ...

وأرجو أن يكون فيه ما يفيد. والله ولي التوفيق .

المبحث الأول

الرسالة البكرية*

لقد سبقت كتابة هذه الرسالة عدة أمور شارك فيها ابن زيدون، منها مشاركته في الدعوة إلى هشام الثاني "الملقب بالمعتد ليكون خليفة مما أحنق عليه أبوالحزم من جهور الذي كان يرى في ذلك تحديا لملكه ومدعاة لزواله[1] وكان يخشى أن تتحول ندوة ولادة الأدبية إلى مكان للتآمر على حكم بني جهور،[2] فاتهم ابن زيدون بالتآمر ضد الدولة، مما انتهى به إلى السجن[3] بتهمة أخرى هي اغتصاب عقار خاص بأحد مواليه، لصعوبة إثبات التهمة الأولى وللخشية من احتجاج الناس على ذلك. وقد مكث ابن زيدون خمسمائة يوم في السجن يقول[4]:

- انظر هذه الرسالة بكاملها في الذخيرة 205/1/1 - 307

[1] انظر الذخيرة 114/2/1، وابن زيدون: عصره حياته وأدبه: ص 189

[2] قلائد العقبان 209/2 وما بعدها

[3] انظر تما المتون، ص 4

[4] ديوان ابن زيدون – علي عبد العظيم ص 16

منون من الأيام خمس قطعتها أسيراً وإن لم يبد شدً ولا قمط

وعانى في هذا السجن من التعذيب والإهانة مما اضطره إلى الفرار منه وقد كتب إثر ذلك رسالته (((البكرية)) إلى أستاذه أبي بكر مسلم بن أحمد بعد فراره من السجن وهو مختف بقرطبة يترقب راجياً من أستاذه أن يشفع له عند أبي الحزم بن جهور ليعفو عنه. ويظهر أن أستاذه قد أظهر لومه له على فراره من السجن، كما أظهره من قبل على تأييده لهشام ودعوته له، ولهذا فقد كتب إليه معاتبا له على إصغائه لمن يقول إن فراره من السجن اثبات للتهمة عليه، موضحاً له الظلم الذي لحقه، طالباً منه أن يشفع له عند ابن جهور ويبين له الحقيقة ليطلق سراحه بالعفو عنه، ويمكن تقسيم الرسالة إلى الأقسام التالية:

1 / المقدمة.

2/ بيان أسباب هروبه من السجن وهو ما سماه ((بالضرورة الحافزة)) وهو ما يمثل الدفاع عن نفسه بعد أن أعلم أن أستاذه لامه على فراره من السجن وتشمل الحديث عن القاضي والشهود والاتهام وعن حاله في السجن وعن فراره.

3/ معاتبته لأستاذه ؛ وتشمل تذكيره بفضل والده عليه، ويعيب عليه موقفه منه، وأنه كان يتوقع أن يبادر هو إلى التوسط فيه و الشفاعة له

4/ طلب الشفاعة وفيه بيان ولائه لابن جهور .

أولاً: المقدمة :-

يقول ابن زيدون مخاطبا أستاذه: ((أبدأ من كتابي إليك بشرح الضرورة الحافزة إلى ما صنعت، مما بلغني أنك صدر اللائمين لي عليه. وأول المسفهين لرأيي فيه، ومن أمثالهم ((ويل للشجي من الخلي))[1] ((وهان على الأملس ما لاقى الدبرة))[2] وأوسطه بمعاتبتك على ما كان من انفصالك أمد المحنة مني، وأنك لم تكن في ورد ولا صدر من مشاركتي فيها، ولا كانت لك ناقة ولا جمل في مظاهرتك لي عليها، مع القدرة بك على تهوين خطبها. وتذليل صعبها، وتليين شديدها، وتقريب بعيدها

فأرى صدقك الحديث وماذا ك لنجلي عليك بالإغضاء

أنت عيني وليس من حق عيني غض أجفانها على الأقذاء[3]

إنما يبقى الأديم ذو البشرة. والمثل السائر ""ويبقى الود ما بقي العتاب"[4]

وقال الأول:[5]

أبلغ أبا مسمَع عني مغلغلة وفي العتاب حياة بين أقوام

وأختمه بتكليفك ما كان سبب الكتاب والداعي إلى الخطاب، عساك أن تتلافى عوداً ضيعت بدءا، وتهتبل آخراً ما أغفلت أولاً، فيعود غيثه على ما أفسد، وإن كنت ف ذلك كدابغة وقد حلم الأديم، فمنفعة الغوث قبل العطب،

---

[1] سبب ضرب هذا المثل فيما يزعم العرب أن رجلاً اسمه، شجي كانت له زوجة أحبت رجلاً آخر اسمه خلي. فدبرت حيلة للفرار من زوجها ورآها لقمان الحكيم وقال: ويل للشجي من الخلي. وفي رواية أخرى أن أكثم. ابن صيفي دعا قومه إل الدخول في الإسلام، فقال مالك ابن نويرة: لقد خرف شيخك، فقال أكثم : ويل للشجي من الخلي . انظر مجمع الامثال 433/3

[2] -الاملس : الصحيح الظهر. الدبر: الذي أصابت ظهره الدبرة. والمثل يضرب لسوء اهتمام الر جل بشأن صاحبه. انظر مجمع الامثال 489/3

[3] البيتان لابن الرومي

[4] هذا عجز بيت صدره أذا ذهب العتاب فليس ود. م اعثر على قائله

[5] هذا البيت لهمام الرقاشي أنظر البيان والتبيين

وخير الأمر ما استقبلت منه وليس بأن تتبعه اتباعاً " [1]

وقد حفلت هذه المقدمة كما رأينا بعدد من الأمثال العربية والشواهد الشع التي لم يتخللها ذكر لقائليها حتى يجيئ كلامه منسجماً، وهي ظاهرة عامة في كل أجزاء الرسالة، ولابد أن يكون هذا الحشد الهائل من الشواهد قد رمى إليه ابن زيدون أولاً؛ لمناسبته لشخص أستاذه وهو العالم الثبت، وكذلك لاستعراض معارفه الواسعة أما أستاذه فيقول. عنه ابن بشكوال: ((وكان رجلا جيد الدين، حسن العقل متهاوناً، لين العريكة، واسع الخلق، مع نبله وبراعته وتقدمه في علم العربية و اللغة رواية للشعر وكتب الآداب، كان لتلاميذه كالأب الشفيق والأخ الشقيق، مجتهدا في تبصرهم متلطفاً في ذلك، سنيا ورعاً))[2] وقد بين هو لأستاذه أن العتاب لا يعني إلا حبه وتقديره

ثانياً: الضرورة الحافزة:

(1) الاتهام :

ثم يبدأ ابن زيدون بطريقة منطقية في بيان التهم التي وجهت إليه وبطلانها، والحيف الذي لحقه من القاضي وكيف أن الأمر مبيت له أصلا ولا علاقة له بهذه التهمة التي لفقت له، يقول: في علمك أني سجنت مغالبة بالهوى وهو أخو العمى، وقد نهى الله تعالى عن إتباعه، وذكر أنه مضل عن سبيله إذ يقول تعالي ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[3] وقال الشاعر[4] :

---

[1] هذا البيت للقطامي
[2] الصلة ص 577
[3] سورة ص [26]
[4] هذا البيت نسبه المبرد إلى هشام بن عبد الملك

إذا أنت لم تعص الهوى قادك الهوى إلى بعض ما فيه عليك مقال

دون تأن تدرك بعض الحاجة به، أو استثبات تؤمن مواقع الزلل معه، بل.

أوردها سعد وسعد مشتمل ما هكذا تورد يا سعد الإبل

ولما كان الغرض من المحاكمة معدا أصلا، فإنهم قد اتبعوا الهوى في محاكمته وإجراءاتها، ولم ينظروا في كل ذلك النظر(القانوني السليم) الذي يبين من الرسالة أن الشاعر ملم به ويعرف أصوله

(2) القاضي:

وقد أكثر ابن زيدون من ذكر القاضي الذي تولى محاكمته والآمر بسجنه، ويقول عنه دائما:" الحاكم الحابس لي "[1]، وتنقل لنا المصادر أن القاضي الذي سجنه هو عبد الله بن المكوي، يقول ابن حيان عن ابن زيدون:((إنه علقه من عبد الله بن أحمد المكوي أحد حكام قرطبة ظفر أحجن أداه إلى السجن))[2]. ويقول ابن بشكو ال عن ابن المكوي: ((لم يكن في القضاة في ورد ولا صدر لقلة علمه ومعرفته))[3] يقول عنه ابن سعيد: ((ولم يكن في نصاب القضاء وهو ممن آثر الخمول للدعة والفلاحة على الدراسة ... ولم يطلق عليه اسم القضاء على سبيل ابن ذكوان قبله وقد اكتسب صرامة وإعجابا حتى استخف بكثير من وجوه الناس، فجرت له بذلك خطوب... من رجل قليل العلم نكد الخلق))[4]. والغريب أن هذا الرجل رغم تحامله على أعداء

[1] هذا البيت لمالك بن زيد مناه بن تميم. انظر طبقات فحول الشعراء29/1

[2] الذخيرة 291/1/1

[3] الصلة، ص 272

[4] المغرب في حُلى المغرب، لأي سعيد ، تحقيق الدكتور شوقي ضيف، القاهرة ، 1953'ج1، ص122

ابن جهور وخصومه ورغم قلة علمه، إلا أنهم أثنوا عليه بالعفة والصيانة))[1] فهو لم يرتش ولم يبتذل نفسه ولكنه مماراة للسلطان وظناً منه أنه على الحق لم يتورع في الإيقاع بخصوم الحاكم[2]

(3) الشهود:

يقول ابن زيدون: ((وشهد ابن العطار العشار العاري عن الثقة و الأمانة البعيد من الرعية والصيانة، الناشر لأذنيه طمعاً، الآكل بيديه جشعاً، فكان القول ما قالت حذام.[3]

ولم يقتصر القول على أن الحق بالشهود وهو واو عمرو فيهم، ونون الجمع المضاف معهم دون أن يلحق بخزيمة ذي الشهادتين[4] وينوب مفرداً عن اثنين.

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد[5]

فابن زيدون حدثنا هنا عن محاكمته وما لابسها من إجراءات غريبة، فإن القاضي ما كاد يسمع التهمة وشاهدها حتى أمر بإلقائه في السجن. وابن زيدون يشير صراحة إلى أحكام الشهود في الشريعة الإسلامية، والأمثلة التي يضربها هي من هذا الباب، وتدل على معرفه دقيقة بأصول الأمر، وهو يوجه هذا إلى عالم فقيه هو أستاذه. وقد كانت أصول المحاكمات في قرطبة

---

[1] الصلة ص 272

[2] انظر ابن زيدون عصره، حياته، أدبه، لعلي عبد العظيم ص 189

[3] قول لجيم بن صعب في صدق زوجته:

اذا قالت حذام فصدوقها فإن القول ما قالت حذام . بمجمع الأمثال 499/2

[4] إشارة إلى الصحابي الجليل خزيمة بن ثابت الأنصاري: عندما شهد بأن رسول الله (ص) قضى دين اليهودي، و لم يره و لم يعلمه، ولما سأله رسول الله قال: نحن نصدقك على الوحي من السماء فكيف لا نصدقك على أنك قضيته فسماه بذي الشهادتين .

[5] البيت لأبي نواس

جارية على مذهب الإمام مالك بن أنس – رضي الله عنه –. فإذا أردنا أن نقارن بين ما رضي به القاضي من الشهود، وما يقوله مذهب الإمام مالك، نجد أن القاضي رضي بشاهد واحد يذكر ابن زيدون أنه غير عدل، فقد كان ((جابياً للزكاة والمعروف أن للعامل على الزكاة جزءاً منها، فكأنه أهل لتلقى الصدقات))[1]، يقول ابن فرحون: ((ويلزم القاضي أن يكون أول ما يبتدئ به الكشف عن الشهود والموثقين فيتعرف حال من لا يعرف حاله منهم، يفحص عن عدالتهم، فمن كان عدلاً أثبته ومن كان جرحة أسقطه، وأراح المسلمين من أذيته))[2]. فهذا أول ما أخل به ابن المكوي مما يظهر أن الغرض مبيت وأن التهمة مقصودة . وأخلّ أيضاً في الشهادة باعتبار شهادة شاهدين عدلين أو رجل وامرأتين .

وقد زاد من غبن ابن زيدون في هذه المحاكمة أنه لم يسمح له بتقديم أي أعذار، وهو حق من حقوق المتهم، ولهذا فقد وصف حاله بأنه اقترن له ((الحشف مع سوء الكيلة))[3] وستضيف له((الغدة إلى الموت في بيت سلولية))[4] فقد قبلت شهادة شاهده غير العدل ورفضت أعذاره.

ويظهر أن النقد قد تتابع على القاضي لظلمه لابن زيدون وإخلاله بإجراءات القضاء وأصوله، كما أن الفقهاء لم يرضوا بما حدث، وأحس

---

[1] انظر : ابن زيدون حياته، ص 190

[2] تبصرة الحكام في اصول الاقضية ومناهج الاحكام، للقاضي ابراهيم بن علي بن فرحون، طبع مصر، 1301-1302هـ ، ج1 ص31

[3] مثل يضرب لمضاعفة الغبن بالبضاعة الرديئة المصحوبة بتطفيف الكيل، والخشف أردأ التمر، انظر مجمع الامثل 367/1

[4] مثل يضرب في خصلتين تجمعان كل منهما شر من الاخرى، اشارة لقصة عام بن الطفيل مع الرسول صلى الله عليه وسلم. انظر بجمع الامثال 413/2

القاضي بهذا فجمع عدداً منهم وحاول أن يبرر موقفه أمامهم فلم يظفر بإقناعهم فأشاروا عليه أن يعطى ابن زيدون مهلة للدفاع عن نفسه والبحث عما يثبت براءته فإن عجز عن الإثبات في نهاية المدة سجنه، ولكن القاضي فعل العكس، يقول ابن زيدون: ((فكلهم أفتى بالإعذار إلى فيما شهد به من ذلك علي ثم سجني إن لم آت بمدفع أو أصدع من الحجة بمقنع، فاحتاط واجتهد وتحرى وصالحني من هذه الفتيا على النصف، بتأخير الأعذار وتقديم السجن)).[1]

ونحن لازلنا نتابع اجتهاد ابن زيدون في إقناع قاضيه بالحق والعدل، فيذكر أنه قدم له وثيقة كتابية تقطع ببراءته، وطلب منه أن يعرضها على بعض الفقهاء للاستشارة لما أحس بإهماله لها، وليس في ذلك مخالفة للشرع الحكيم يقول:((ثم أظهرت إليه عقدا كان المتوفى قدس الله روحه ونور ضريحه قد أشهد فيه أن لا مال له، وأن جميع ما تحيط به الدار التي توفي بعيد هذا الأشهاد فيها إنما هو للغانية التي في عصمته حاشا دقائق بينها ومحقرات عينها، ومعلوم أن من أشهد بهذا على نفسه وتقيد إلى مثله من لفظه فمحال أن يخلف وعداً، أو يهلك عن وصية، وسألته الشورى فيما أثبته من هذا العقد فلم يجبني إلى ذلك)) .

ثم يخرج ابن زيدون عن هذا إلى تأكيد مبدأ الشورى بين المسلمين، يقول:

---

[1] الذخيرة 347/1/1

2 سورة

((ولو لم تكن الشورى من أدب الله إذ يقول:﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ) [1]، لوجب أن من يعلم أنها لقاح العقل، ورائد الصواب، وأن للمشاور إحدى الحسنيين: صواباً يفوز بمحمدته، أو خطأ يشارك في مذمته، قال الشاعر:[2]

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة فإن الخوافي عدة للقوادم

ويتابع ابن زيدون رسالته في، أسلوب راق من الإقناع، فمع أنه قد بذل مع قاضيه كل وجه حتى يخطئ رأي القاضي وأن لا مخرج له إلا أن يستسلم للعدل، إلا أن القاضي لجا إلى الوعد الكاذب، يقول: فحينئذ عللني بمواعيد، كانت مواعيد عرقوب لها مثلاً[3] ، إذا قطعن علماً بدأ علم"، وكان آخرها الذي نسخ به ما قبله أن تدرج الشورى إلى إبقاء الشورى للورثة، فثويتُ أرقب هذا الحين وأرجو أن يحين، كما يرجو أخو السنة الربيعا، وكما في بطون الحاملات رجاء

فكنت وأياه سحابة ممحل رحاها فلما جاوزته استهلت[4]

فهذه هي الصورة الكاملة للغبن الذي أصاب ابن زيدون في محاكمته، بدأه مغالبة بالهوى، وأن الأمر قد لفق بتمامه، وأنه قد ظلم في بالحديث عن أنه سجن محاكمته، ولم تتح له فرصة للدفاع، فسدت كل الأبواب في وجهه. فهم لم يكتفوا بسجنه وحسب وإنما بالغوا في تعذيبه كما يبين فيما يأتي .

---

[1] سورة آل عمران/ ايه : 159

[2] البيت لبشار بن برد – من بحر الطويل

[3] يقال أن عرقوب رجل من خيبر وعد أخاه بتمر نخله ثم أخلفه ما وعده فضرب به المثل في الكذب والخلف.

[4] البيت لكثير عزة من تائيته المشهورة

وأبي وتهيامي بعزة بعدها تخليت مما بيننا وتخلت (من بحر الطويل)

السجن:

ثم بدأ ابن زيدون يبين لأستاذه ما لاقاه في سجنه: " ولكنت أول حبسي وضعت من السجن في موضع جرت العادة بوضع مستوري الناس وذوي الهيئات منهم فيه، وفي الشر خيار وبعضه أهون من بعض، فمنيت من مطالبة بعض من يأتمر الناظرون في من السجن له، ويسمعون منه بما اقتضى نقلي إلى حيث الجناة المفسدون واللصوص المقيدون .وشكوت ذلك إلى الحاكم الحابس لي في اليوم الذي مضى ذكره بمشهد من تقدم وصفه، فانتفى من الرضا به وأظهر الامتعاض منه وتقدم إلى الموكل بالسجن في اختيار مجلس أباين فيه من لا يليق بي ملابسته، وانتبذ عمن لا ترضى لي مجالسته ، ثم لم ألبث أن أحضره مجلس نظره، وأمر بتأديبه على امتثاله في ما أمر به وانتهائه إلى ما حد له، واستأنف العهد في التضييق علي ومنع من اعتاد صلتي من الوصول إلي فأصعدت إلى غرفة في السجن أقنعني بها مع خساستها ، وأسلاني عن المصيبة بالكون فيها، على مضاضتها انفرادي من لفيف الأخلاط ومن ضمه السجن من السفلة والسقاط))[1]. وقد ازدادت حاله في السجن سوءا كما بين في قوله : ((ودخل إليّ في هذه الحال من أبلغني عن ابن أخي الحكم رساله جامعة من السبّ الفاحش لفنون مشتملة من الوعيد المرهب على ضروب، فلو ذات سوار لطمتني.

وإنك لم يفخر عليك كفاخر ضعيف ولم يغلبك مثل مغلب[2]

وقد بقى ابن زيدون في هذا السجن كما ذكرنا أكثر من خمسمائة يوم، يقول:[1]

[1] الذخيرة 348/1/1

[2] البيت لا مريء القيس

منون من الأيام خمس قضيتها أسيراً وإن لم يبد شد ولا قمط

وهذا ظلم أيما ظلم اضطر الشاعر بعده للفرار من السجن .

الفرار:

ونلاحظ أن ابن زيدون قد حاول أن يتتبع ما حدث له في السجن من تعذيب وهو برئ من كل التهم، حتى يبين لأستاذه ما وعده به في أول الرسالة أنه سيبين له الضرورة الحافزة له على الفرار، ذلك بعد أن سلك طريقاً طويلة في محاجة الحاكم، فلما لم يفلح وقد لاقى من التعذيب ما لاقى لم يجد بدا من الفرار، إذ هو الطريق الوحيد للنجاة، يقول : " فلم أستطع صبراً، وعلمت أني قد أبليت عذرا ولم يبق لي إلا أن يعذرني لبيد وكاد،[2] ورأيت العاجز من لا يستبد[3] فالمرء يعجز لا المحالة، ولم أستجز أن أكون ثالث الأذلين العيرُ والوتد. وذكرت أن الفرار من الظلم والهرب مما لا يطاق من سنن المرسلين، قال الله عز وجل على لسان موسي عطيه السلام قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ ﴾[4]

وحتى لا يلومه أستاذه على ترك الوطن قال له: ونظرت في مفارقة الوطن، والبين من الأحبة، فتبين لي إيحاش نفسي بإيناس أهلي وقطعها في صلة وطني غبن في الرأي وخور في العزم..... ولم استغرب أن أسام مثل هذا الخسف في مسقط رأسي، ومعق تمائمي، وأول أرض مس ترابها جلدي،

---

[1] ديوان ابن زيدون: علي عبد العظيم: ص 16

[2] إشارة إلى قول لبيد بن ربيعة: إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر

[3] إشارة إلى قول ابن أي ربيعة: واستبدت مرة واحدة إنما العاجز من لا يس0تبد

[4] سورة الشعراء: اية 21

فقديماً ضاع المرء الفاضل في وطنه....))."[1] وقد زاد ابن زيدون أستاذه فوق كل هذا أنه ما هرب إلا بعد أن استخار الله تعالى في فراره من السجن يقول : ((فاستخرت الله عز وجل... والله يصيب غرض الصواب برأي، ويقرب النجاح على سعى ، حسبما في علمه أني مظلوم مبغي عليه منسوب ما لم آته الي فهو المؤمل بذلك والمرجو له)).[2] فهذه الأسباب مجتمعة من معاناة ابن زيدون هي التي اضطرته إلى الفرار فهي الضرورة الحافزة التي أراد أن يبينها في الرسالة.

ثالثاً: عتابه لأستاذه وتبرؤه من تهمة القدح في الحاكم وبيان تقديره له:

وقد خصص ابن زيدون هذا الجزء من الرسالة لمعاتبة أستاذه على لومه له على فراره من السجن وكان قد مهد لهذا العتاب في مقدمة الرسالة بقوله: ((وأوسطه عني وبراءتك أمد المحنة مي وإنما يعاتب بمعاتبتك علي ما كان من انفصالك الأديم ذو البشرة، والمثل السائر: ويبقي الود ما بقي العتاب))"[3].

وقد بدأ ابن زيدون هذا العتاب ببيان مكانته من أستاذه وتذكيره بهذه المكانة فهو تلميذه وابن جاره وهو كذلك ابن شيخه، الذي يقول عنه: ((لم تزل متوفراً عليه آخذا عنه مقتبساً منه مع إكثارك من ذكر هذا والاعتداد به وادعاء الحفظ له، وقد رويت أن حسن العهد من الإيمان وسمعت المثل: ((انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً الخ))."[4] وكان ابن زيدون يتهم أستاذه بنسيان صلته بوالده و إلا لما لامه.

---

[1] الذخيرة 349/1/1
[2] الذخيرة 349-350
[3] الذخيرة 345/1/1
[4] المصدر السابق 1350/1

وخلال هذا العتاب ينفي التهمة بالتحريض ضد الملك ، ويبين لأستاذه بطلانها بقوله: ((و والله ما توهمت أني أوتي ممن زعم أني أتيت منه ، مع اتصالي به وانقطاعي إليه، واتسامي بالتأميل له والتعويل عليه)) ويقول : ((والله لقد أظهرت مدحه وأضمرت نصحه وتممت على الصياغة له وجريت ملء العنان إلى الإعتلاق به، أسقيه السائغ من مياه ودي، وأكسوه السابغ من برود حمدي، وأجنيه الغض من ثمرات شكري، وأهدي إليه العطر من نفحات ذكري)) [1]

ثم يعاتب أستاذه والملك بإرجاع الأمر إليهم، فلم لا يكونون في مقام أعلى من تصديق الوشايات:((لقد كان من محاسن الشيّم وشروط المروءة والكرم، أن يهب لي ما أنكر لما عَرَف، ويغفر ما سخط لما رضي، ويدفع بالتي هي أحسن ويؤثر الذي هو أجمل وأرفق ويتوقف عند ما لص عليه من سعاية، وزفة إليه من وشاية، فإن كان باطلا ألغاه، وفضح المخبر المتقرب به وأقصاه))[2].

ويفترض ابن زيدون أنه حتى لو كان الاتهام حقا ، أفلا يكون الأمير أكبر من هذا، فيعفو ويصفح ويتذكر ما كان عليه من أياد بيضاء، وهنا يلمح ابن زيدون بالإشارة لفضله في قيام الدولة الجهورية كما أشرنا من قبل يقول: ((وإن كان حقاً صبر صبر الحليم، وأغضى إغضاء الكريم، وقبل إنابة المعتب، واقتصد في مؤاخذة المذنب، فقدم التوقيف قبل التثقيف، والتأنيب قبل

[1] المصدر السابق نفسه 352/1/1
[2] الذخيرة 1351/1/1

التأديب، فإن الرفق بالجاني عتاب، والحر يلحى والعصا للعبد)).[1] ويذكر ابن زيدون أستاذه بأن الأمير كان قد أعفى عن قوم كثر لا يحصرهم العد لا يتميزون عليه بشيء فهو أهل للفضل كله يقول: ((فإن كانت مسامحتهم بسابقة سلفت فقد أحرزت منها الحظ الأعلى، أو لكمال الأدب فقد ضربت فيه بالقدح المعلى أو للطف تودد فما قصرت في الاجتهاد غير أني حرمت التوفيق)).[2]

رابعاً: طلب وساطة أستاذه عند أبي الحزم بن جهور:

وقد كان ابن زيدون حريصاً على أن لا يترك للملك أمراً يأخذه عليه، فقد طلب في الجزء الأخير من هذه الرسالة من أستاذه أن ينقل للملك إجابات ابن زيدون عن كل الأمور التي أسيئ فهمها بينهما، وكذلك أن ينقل له رأيه في الفرار، وأنه ناتج عن معاناته رغم قبحه في حقه، يقول: ((والذي أحبه منك وأثق في المسارعة إليه بك، لقاؤه مجاريا ذكري، مفاوضاً في أمري، معلماً له بما لا يذهب عنه من أن الذي اخترته لنفسي غاية ما يسيء العروبة، ويساء المولى منه، فالجلاء أخ القتل، والغربة أحد السباعين قال تعالى: ﴿ وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡ ﴿٦٦﴾ ﴾[3] ويريد ابن زيدون أن ينقل أستاذه للملك أنه ليس عليه وكذلك أمه: ((وغبت عن أم أنا واحدها سعيداً بفراره هذا، وأن أرضه عزيزة تمتد أنفاسها شوقاً إلي، وتُغضُ أجفانها حزنا على، والله يرى بكاءها ويسمع لي على من ظلمني

[1] المصدر نفسه 352/1/1
[2] المصدر نفسه
[3] سورة النساء: اية : 66

نداءها فالاستجابة للمخلص والمظلوم وقد حملت السمتين واستوجبت الصفتين))[1] ثم يختم الرسالة بطلب صريح، فإما أن يعفو عنه أبو الحزم، أو يعلم بأنه لن يعفو عنه حتى يطلب الأمن في مكان آخر، يقول: ((ولتكن بغيتك التي تدّخرها عليها كلمة تأمين، وإشارة إلى تأنيس وتسكين، تراجعني بها فأظهر بحيث أنا آمنا وألقي العصا مطمئنا، فإن وجدت محز الشفرة فالعوان لا تعلم الخمرة، فإن أشبهت الليلة البارحة أعلمتني بذلك، فطلبت الأمن في مظانه وتقريت السلامة في مواطنها، وصبرت حتى يحكم الله لي وهو خير الحاكمين))[2] ويذكره بأنه لن ينسى فضله عليه ويختم بالتحية الطيبة والسلام المردد على أستاذه.

فهذه هي رسالة ابن زيدون إلى أستاذه أبي بكر مسلم بن أحمد بن أفلح النحوي، جاءت مرتبة بصورة للمنطق فيها يد، تدل على معرفة بأصول الإقناع وترتيب الأفكار، حتى لا يجد القارئ لها بدا من تأييد صاحبه، وهو بجانب هذا الترتيب حشد فيها الشواهد التي يعلم أنها تؤثر في أستاذه وتقنعه، وإن كان قد أطال في شواهده وأكثر منها مما قد يخل بالرسالة، وتجيء شواهده غالباً مرتبة، فيبدأها بشاهد من القرآن الكريم أو الحديث النبوي الشريف، أو كليهما معا ثم يعقب ذلك بالأمثال العربية أو الشعر قديمه وحديثه أو كليهما معاً، وأحياناً يلجا إلى حشد الجمل من غير استشهاد حتى يقف القارئ أو من وجهت إليه، على غرضه بصورة تبينه، وهو في كل هذا غير متكلف، حتى هذه الشواهد يأتي بها في ثنايا كلامه ولا يذكر اسم الشاعر في

[1] الذخيرة 353/1/1
[2] الذخيرة 353/1/1

شواهده، حتى لا نشعر بأن شاهده نشاز في هذا الموضع أو أنه دخيل على موضوعه، فهو إنما التمس المعاني العامة التي تبين الحق الذي يعتقده كل الناس، وتنقل لنا المصادر أن الأمير بعد أن توسط عنده أبو بكر بن مسلم في شأن ابن زيدون قد عفا عنه فأفلحت رسالته في غرضها.

مصادر الرسالة:

يلحظ الباحث أن هذه الرسالة يظهر فيها عدد من معارف عصر ابن زيدون، وتدل على سعة أفقه وثقافته، فمصادره فيها أعلاها القرآن الكريم الذي استشهد ابن زيدون في رسالته بعدد من آياته، ثم إن أثر الفهم القرآني واضح في كثير من المواضع، مثل فهمه للعدل والإنصاف وللقضاء والقدر وللصبر والحلم، ولمفاهيم الصلات الاجتماعية ولمفهوم الإحسان. ثم الحديث الشريف، الذي استشهد بنصوصه في عدد من المواضع، وأحياناً فهمه العام لبعض الأحاديث النبوية من غير أن يشير إلى نص بعينه، بل إن بعض الجمل تحس فيها تشبعه بروح الثقافة النابعة من القرآن والسنة كقوله: ((والله يرى بكاءها، ويسمع على من ظلمني نداءها، فالاستجابة مضمونة للمخلص والمظلوم))[1] ويخاطب شيخه أحياناً مذكراً له بالحديث في قوله ((وقد رويت أن حسن العهد من الإيمان)). ويتصل بهذين المصدرين فهم ابن زيدون الدقيق لمسائل الفقه، وقد ظهر لنا ذلك جليا في المناقشة الطويلة لإجراءات محاكمته وسجنه، فيما بينه من مخالفة القاضي لكل أصول القضاء وأصول العدالة في الفقه الإسلامي. ونستطيع كذلك أن نستنتج من خلال اطلاعنا على هذه المناقشة الفقهية ومن خلال ترتيب الحجج وأجزاء الرسالة، أن ابن زيدون على معرفة بالمنطق وبالحجاج وبالجدل، فكأننا به لا يريد أن

[1] الذخيرة 353/1/1

يصدر عن أستاذه الإ بعد أن يقنعه إقناعاً تاماً بحجته، ويتصل بهذا ما حشده من شواهد من القرآن والحديث، ومن الأمثال العربية وفي الأمثال حكمة، تعبر عن خلاصه تجارب من صاغوها أو خلاصة تجارب مجتمعاتهم. وكذلك شواهده من الشعر العربي قديمه وحديثه، مما يشكل مصدراً من مصادر رسالته، فتبين معرفته الواسعة بالأدب واللغة وسعة حفظه للمأثور من الشعر والنثر، وكذلك استيعابه وحفظه للحكم والأمثال. أما المصدر الأخير فهو أن هذه المعارف قد جاءت تحمل طابع ابن زيدون، فلا شك أن لتجربته وشعره وتتلمذه على أساتذة في البيان واللغة وعلومها والكتابة ، ممن عاصروه أو السابقين له من مثل عمرو بن بحر الجاحظ والحسن بن سهل وجعفر البرمكي وغيرهم أثره في هذه الرسالة، وكذلك واضح أثر شعره من العاطفة التي حملتها الرسالة من التضرع له بالعطف على أمه، وغير ذلك مما بيناه في موضعه من الرسالة

القيمة الأدبية واللغوية للرسالة:

تتمثل القيمة الأساسية لهذه الرسالة في أنها تعتبر وثيقة تاريخية تبين الأصول التي تقوم عليها المحاكم في الأندلس، وكيف خولف هذا في تجربة ابن زيدون مع ابن المكوي ومع أبي الحزم بن جهور، وتدل على أن القضاء في الأندلس في غالبه الأعم كان قضاء نزيها إلا من بعض الأيدي التي دخلته فحكمت بالهوى، ثم كانت تجهل أصوله، وقد نقل القدماء جهل هذا القاضي على نحو ما بينا من قبل. ويستفيد القارئ للرسالة أن للسجن في الأندلس نظامين: ((نظام يطبق على ذوي الرأي والمكانة تراعى فيه أقدارهم ومنازلهم، ونظام يطبق على السفلة والأوشاب وقطاع الطرق وغيرهم من

فئات المجرمين))[1]، وهو كذلك أشبه بالنظم الحديثة في السجون، وإن كانت الانتهاكات التي ارتكبت في حق ابن زيدون لا تزال قائمة في بعض الأحوال ويستفاد منها في طريقة كتابة الرسائل التي يرجو صاحبها ممن يوجهها إليه تحقيق غرض ما، وبخاصة طريقة ترتيب الحجج ودعمها بالشواهد المقنعة، والتي تماثل ما قيل في الغرض نفسه. ولا يخلو بناء هذه الرسالة من شبه بالجانب القصصي على الرغم من أن ابن زيدون قد بدأ بترتيب منطقي يناسب عقلية أستاذه، إلا أن فنه الغالب هو النظم وليس النثر قد أثر فيه خاصة الطريقة التي شرح بها معاناته في السجن والمحاكمة وفراره.... الخ ذلك. وهي الرسالة الوحيدة بين رسائل ابن زيدون التي ندرسها، والتي حاول أن يجعل لها بناء منطقيا ومع ذلك فقد غلب عليها الطابع القصصي[2] وهو الطابع العام لرسائله الأخرى.

أما أسلوب ابن زيدون فلا يظهر فيه أدنى تكلف فشواهده ((جاءت أحكم وألصق بمواضعها حتى تبدو مستقرة في مواطنها، كأنما نظمها كاتب الرسالة ليتمم بها رسالته.... وقد استملى فيها عقله، كما استملى قلبه، ومزج بين فكره ووجدانه)) [3]

ويمكننا القول أن من مميزات أسلوب ابن زيدون في هذه الرسالة كثرة الاقتباس والتضمين من كلام السابقين ، والاعتماد على قوة الحجة والجدل المنطقي ((بحيث تكون أدلته دامغة وتأخذ على المعارض السبل ،وتوصد في

[1] ابن زيدون عصره حياته وأدبه، ص 219-420
[2] دراسات في الادب الاسلامي، ص 117
[3] ابن زيدون عصره، حياته، أدبه ص 419

وجهه كل الأبواب)) وتظهر في الرسالة بعض الجمل المترادفة على قلتها . ونلاحظ أن الرسالة قد قل فيها السجع جدا وبخاصة في صلب موضوعها، ولعله لم يظهر إلا في الجمل الدعائية، وأحسبه غير مستقبح فيها ((ومن أبقاه الله في أصلح الأحوال ، وأفسح الآمال ... الأخ))[1]، علماً بأن السجع قد كان شائعا في أساليب القرن الخامس الهجري، ولكن يظهر أن ابن زيدون قد جرى فيما وقع فيه من سجع على قلته على مذاهب عصره ونستطيع أن نجد أصالة أسلوبه، وكذلك تبين قيمتها اللغوية فيما حوته من حكم وأمثال في مواضعها وما حوته من أشعار القدماء والمحدثين، وهو يشير إلى كون هذا الشعر أو الأبيات التي يستشهد بها لبعض المحدثين وإن كان هو أميل للاستشهاد بأشعار القدماء، وربما كان يراعي في شواهده معارف الشيخ أبي بكر مسلم بن أحمد النحوي.

المبحث الثاني:

الرسالة المظفرية

انتهى الأمر بابن زيدون بالعفو عنه، وتعيينه سفيراً لأبي الوليد بن جهور الذي خلف أبا الحزم – لدى ملوك الطوائف الأخرين إلا أن إقامة ابن زيدون قد طالت في إحدى سفراته إلى مالطة عند إدريس بن حمود، فأعفاه أبو الوليد عن عمله، فانسدت الطرق في وجهه بعد أن فقد مكانته في الدولة الجهورية، فكتب رسالة إلى المظفر سيف الدولة أبي بكر بن الأفطس صاحب بطليموس. وتدور الرسالة حول شفاعته عند الأمير لأحد أصدقائه، وتكاد حالة هذا الصديق تنطبق على ابن زيدون تمام الانطباق، حتى ليسبق إلى الذهن أنه جعل هذا الصديق ستاراً لنفسه حتى إذا لقي صدراً رحباً وصادفت

[1] الذخيرة 305/1/1

شفاعته محلا عند الأمير كشف عن نفسه الستار، ويرجح هذا الظن أن اسم الصديق لم يرد له ذكر في الرسالة)).[1] بل سماه بأبي فلان.

وهذه الرسالة من الرسائل التي يبين فيها تأثر ابن زيدون بالمخاطبة الديوانية حيث لا معدى للكاتب في زمانه من تفخيم المخاطب إذا كان لأرفع منه رتبة، (فكيف إذا كان ملكا ؟) وأن يمدحه بصنوف من الأمداح المداورة بدلا من أن يصف محامده المباشرة))[2]. يقول ابن زيدون: ((لما لبس الحاجب أعزه الله رداء المجد معلماً، وحمل لواء الحمد معلنا، فاستطار بارق فجره، واستضاع فائح ذكره، وشهرت محاسنه على كل لسان وسارت مأثره مسيرة الشمس بكل مكان لما سوغ من كرمه، وأسبغ من نعمه، ووطّأ للآملين من أكنافه، وهز إلى الراغبين من أعطافه، ورفرفت أجنحة الأهواء عليه، واهتزت جوانح الآمال إليه، وكثر التغاير على تفيؤ ظله، والتنافس في الإعتلاق بحبله، وكل استفرغ جهده وتوسل على حسب ما عنده، ولا غرو أن يستمطر الغمام ويؤمل الكرام، ويكثر في المشرب العذب الزحام))[3].

ثم يبين له أنه سمع كثيراً عن كرمه وأريحيته لكن أسبابا بعينها حالت دون أن يفوز بلقائه وذلك كما يقول: لأسباب البعد المانعة وامتداد البلاد المعترضة، فغضضت طرف الخيبة، وطويت كشحا على اليأس من درك الأمنية)).[4] ثم يدخل ابن زيدون شخصا سماه بأبي فلان حرضه على مكاتبة ابن الأفطس، ونبهه على ما في التثاقل عن مداخلته من التضييع الصريح،

[1] ابن زيدون: عصره، حياته، أدبه: ص 420-421
[2] دراسات في الادب الأندلسي ص 100
[3] الذخيرة 333/1/1
[4] المصدر السابق 335/1/1

فيصف حاله بعد أن حادثه هذا الشخص بأنه طرب إلى ذلك ((كما طرب النشوان مالت به الخمر)) واهتز له كما ((اهتز تحت البارح الغصن الرطيب))، وقرر أن يستفتح المكاتبة مع هذا الأمير بالشفاعة ويعرض عليه خدماته، ويصف له حال صديقه بقوله ((هو فتى نام جده، واستيقظ حده، فتنكر الزمان له، واعترت الأيام به بين ذئاب سعاية عوت عليه وعقارب وشاية دبت إليه، وأصلي بنار حرب لم يجنيها، واعدته مبارك جرب التبس بها، وآل به الأمر إلى فراق أحبته ، والبعد عن مسقط رأسه ومعق تمائه، على ضيق حاله وضعف إحسانه...)).

وينتهي ابن زيدون بعد هذا العرض لحال صديقه إلى إعلام الأمير بأن آمال هذا الصديق متعلقة به وهو متأكد من استجابته لشفاعته فيه يقول: ((والحاجب أدام الله إعزازه – ولي أعدائه على زمنه الغشوم، وأملا بإنصافه من دهره الظلوم بإلباسه من جميل رأيه ما عرى منه، وإيراده من شريعة رضاه ما حلي منه، والتخلية بينه وبين الأفق الذي لم ير كوكب سعد إلا فيه ولا تلقى نسيم حياة إلا منه وهو أهل الفضل والمعهود منه كرم الفعل والله يبقيه ويعليه وهو حسبه وحسبي فيه))[1] .

وبعد أن مدح ابن زيدون الأمير بكريم الصفات والخلال، وجعله خيار الناس وقبلتهم، وأنه لا يأمل إلا في الاستجابة لشفاعته في أبي فلان، وبين له أن ما كتبه له نثراً أبى الشعر إلا أن يقترن به يقول: ((ولما اطرد هذا النثر لحسن اتساقه، ولذ مساقه، وهزت النظم أريحية جذب لها بعنانه، وعارضه

[1] الذخيرة 1335/1

في بها ميدانه، وأبت أن ينفرد النثر بلقاء الحاجب ومشافهته))[1] ثم مدحه في الرسالة بقصيدته التي مطلعها.

لبيض الطلى ولسود اللمم بعقلي مُذ بنّ عنّي – لمم

وفيها يقول:

وما ذو التذكر ممن يلام ولا كرم العهد مما يذم

وإني أراح إذا ما الجنوب راحت بريا جنوب العلم

وأصبو لعرفان عرف الصبا وأهدى السلام إلى ذي سلم

ثم يسترسل في مدح الأمير على نحو ما قال في أول الرسالة يقول:

هو الحاجب المعتلى للعلا شماريخ كل منيف أشم

مليك إذا سابقته الملوك حوى الخصل أو ساهمته

فأطولهم بالأيادي يدا وأثبتهم في المعالي قدم

وأروع لا مبتغي رفده يخيب ولا جارة يهتضم

ويقول فيه:

جواد ذراه مطاف العفاة ويمناه ركن الندى المستلم

يهيج النّزال به والسؤال ليثا هصورا وبحرا خضم

شهدنا لأوتي فصل الخطاب وخص بفضل التهى والحكم

وهل فات " سيء من المكرمات جرى السيف يطلبه والقلم ؟

ومدح كذلك أسلافه في هذه القصيدة .

[1] المصدر السابق 338-335/1/1

أبوه الذي فل غرب الضلال ولاءم شعب الهدى فالتأم
ولاذ به الدين مستعصما بذمة أبلج وافي الذمم
وجاهد في الله حق الجهاد من دان من دونه بالصنم
نجوم هدى والمعالي بروج وأسد وغى والعوالي أجم

تم يختتم قصيدته بطلبه وشفاعته :

أناديك عن مِقةٍ عهدها كما وشّت الروض أيدي الرّهم
وأني لأصفيك محض الهوى وأخفي لبعدك برح الألم
ومستشفع بي بشرته على ثقة بالنجاح الأتم

ويعتذر ابن زيدون في نهاية القصيدة من أنها لا تناسب مقام الأمير ويصف حاله عند قولها ((ما اقتضته القريحة اقتضائها وأجابتنا به البديهة عند استدعائها والذهن عليل والطبع كليل والروية فاسدة))[1] وحتى لو لم يكن هو في ساعه كتابته لهذه الرسالة عليل الذهن فاسد الروية كما قال، فلابد أنه مقصر فيما يكتبه لمثل ابن الأفطس يقول: ((ولو أني أوتيت في النثر غزارة عمرو، وبراعة بن سهل، وأمددت في النظم بطبع البحتري وصناعة الطائي، لما رددت للحاجب إلا ما منه، ولا أوردت عليه غير ما صدر عنه)).[2]
ويذكره في خاتمة الرسالة بأنه ينتظر فضله ويثق فيه.

القيمة الأدبية واللغوية للرسالة:

واضح من بناء هذه الرسالة أن ابن زيدون متأثر فيها بشاعريته أو لا في بناء الرسالة نفسها، فكأنها قصيدة منثورة بدأها بتحية الأمير ثم بمدحه بكل

[1] الذخيرة 388/1/1
[2] المصدر نفسه

فضيلة، ومدح أجداده وجعله أهلا لتلبية كل مطلب، فهو قبلة الناس، تم عرض حاجته ولم يترك للأمير صفة خير إلا ذكرها. ومن أسباب لجوء ابن زيدون لإدخال القصيدة في هذه الرسالة رغبته في عرض قدراته وتبيين تمكنه من ناصية البيان والأدب، فهو إن كان يطمع في منصب عند صاحب بطليوس فإنه يطمع في منصب يوازي ما كان له عند بني جهور، ويستطيع الباحث أن يدرك بسهولة أن القصيدة لم تضف في المعاني التي حملتها الرسالة جديدا بل إن معانيها هي معاني الرسالة ذاتها. وميزة قصائد ابن زيدون التي تجيئ في الرسائل أنها: ((محددة المعالم، مرتبة الأفكار، مزودة بقوة الانتفاء اللفظي))[1]

ويرجع البير مطلق أسباب ميل ابن زيدون لكتابة الرسائل رغم إجادته الشعر، أن ذلك إنما كان بسبب ما كان للكتابة من أهمية في عالم الملوك والأمراء، وكان ابن زيدون محبا لهذا العالم، فاستعان بالكتابة لتثبيت مواقعه))[2]. وظاهرة استخدام القصائد في الرسائل لم تكن وقفاً على ابنزيدون، ويبدو أن ذلك كان اتجاها عاماً، وربما استطاع ابن زيدون أن يطوره وأن يبرع فيه، وله أمثلة عند معاصري ابن زيدون.[3] ولعل ابن زيدون كما يظهر من ربطه بين الشعر والنثر وتعليله لذلك يرى أن الشعر ((يتمم الرسالة النثرية ويضفي عليها طابعاً من الأناقة ... وهو لذلك يلحق بعدد من رسائله النثرية العامة قصائد، ويعلل ذلك في أكثر الأحيان تعليلات تغلب عليها

[1] دراسات في الادب الاندلسي ص 162
[2] المصدر السابق، 163
[3] المصدر السابق، ص 164

الأناقة اللفظية والمجاملات الحضرية))[1] آنفا في رسالته لابن الأفطس: ((ولما اطّرد هذا النثر لحسن اتساقه، ولد مساقه هزّت النظم أريحية جذب لها بعنانه وعارضه بها ميدانه، وأبت أن ينفرد النثر بلقاء الحاجب وأريحيته، ويستبد أن تلمح غرته وتخدم بالحضور حضرته)) [2].

وتتمثل قيمتها كذلك في طريقة كتابة الرسالة التي تكون في طلب شفاعة أو غرض خاص، فإن أثر الأسلوب اللغوي في هذا أقوى من أثر المنطق والحجاج ولهذا لجا ابن زيدون إلى أسلوب آخر غير أسلوب رسالته إلى أستاذه، فقل حشد الشواهد جداً، أو انعدم وقل الاقتباس من الشعر، وربما يكون ابن زيدون قد اكتفى بقصيدته عن استلهام غيره من الشعراء. ونلاحظ أن ابن زيدون قد جرى في هذه الرسالة على أسلوب السجع بصورة لافته للنظر، بل لا تكاد تخلو عبارة عنده من السجع ولعله يناسب ذوق عصره وممدوحه، وهو كذلك لشيوع السجع في القرن الخامس، أما معرفة ممدوحه للأدب فيقول عنها: ((ما رددت إلى الحاجب إلا ما أخذت منه ولا أوردت عليه غير ما صدر عنه)).

المصادر:

أما المصادر التي لها أثر في رسالة ابن زيدون إلى ابن الأفطس أولها شاعريته التي تدل عليها ألفاظ الرسالة التي حكم ابن بسام على صاحبها بأن له حظاً من النثر غريب المباني شعري الألفاظ والمعاني ، فمعانيه هنا هي معاني الشعر ذاتها، وثانياً نلاحظ أن الشاعر قد ذكر بعض ما يشير إلى أنه

[1] دراسات في الادب الاندلسي، ص:166
[2] الذخيرة 335/1

متأثر بأعلام في النثر والشعر هم الجاحظ وسهل بن هارون، والبحتري والطائي والمصدر الذي يتضح هنا هو موهبة الشاعر ومقدرته في البيان العربي.

المبحث الثالث:

الرسالة العامرية

كتب ابن زيدون هذه الرسالة إلى صديقه أبي عامر بن مسلمة بإشبيلية، وأبو عامر واحد ممن نقم عليهم ابن جهور فنفاه فالتحق بكنف المعتضد بن عبّاد. ولما لم يطب لابن زيدون المقام في بطليموس أو لم ينل مراده فيها فكر في الالتحاق بإشبيلية، فكتب لصديقه ابن مسلمة ليعينه في ذلك، وذلك كما يقول ابن زيدون لحظوته لديه ومكانته عنده أي عند المعتضد

وقد بدأ ابن زيدون الرسالة بالتحية والسلام ومدح صديقه وشكره، ثم بدأ في عرض معاناته. ويظهر من كلمات الرسالة أنه سئم توالي النكبات وسئم الفشل في مخاطبة الأمراء وسئم تعطله عن العمل وتعطل مواهبه يقول: ((في علمك أعزك الله ما تقتضيه العطلة من إظلام الخاطر، وصدأ النفس، ويجنيه طول المقام من إخلاق الديباجة، وإرخاص القدر، وقد آن أن أجتني ثمرة آداب أطلت الاعتناء بها، وأخلاق أدمت رياضة الأنفس عليها))[1] وقد كان ابن زيدون يرى نفسه أهلا لخدمة الملوك في مكاتباتهم وأن يكون سفيراً بينهم .

تم يمدح لصديقه ابن مسلمة، المعتضد بن عباد صاحب إشبيلية ، ويجعله

[1] الذخيرة 1/1/338-339

خيار الملوك وكأنه قد يئس من الآخرين بعد تجاربه معهم يقول:((لما الملوك وجدت عميدهم الذي أنسى السالف قبله، وتقدم الراهن معه، وأتعب الغابر بعده، الحاجب فخر الدولة مولاي، ومن أطال الله بقاءه وكبت أعداءه، لما خصه الله به من سناء الهمم وسماحة الشيم وانتظام أسباب الرياسة وكمال آلات السياسة، واجتماع المناقب التي أفردته من النظراء وأعلته عن مراتب الأكفاء، فرأيت قبل أن أحمل لغيره نعمة، أو أوسم ممن سواه بضيعة، وأن أعرض نفسي مملوكة عليه عرض من لا يؤهلها لإجازته إلا بالاستجازة ولا يطمع لها في قبوله إلا مع المسامحة)). [1]

ونلاحظ أن ابن زيدون قد استرسل في مدح الأمير وأكثر منه، مع أن الرسالة لصديقه وليس للأمير، ولعله كان يعلم أن صديقه سينقل كل ذلك لأميره، ونلاحظ أن ابن زيدون يعرض بضاعته عرضاً متواضعاً لعلمه بمكانة الأمير في الأدب والبيان ويلجا إلى مشائخه في الأدب ويبين أنه حتى لو كان في مقامهم لتواضع للأمير، يقول:((فلو كنت الوليد بن عبيد براعة نظم ، وجعفر بن عيسى بلاغة نثر، وإبراهيم بن المهدي طيب مجالسة وإمتاع مشاهدة، ثم حضرت مجلسه العالي لما كنت فيه بسعة إحاطته إلا من جانب التقصير وتحت عهدة النقصان))[2]

ويحدد ابن زيدون المناصب التي يستطيع أن يخدم فيها الأمير بقوله: ((غير أنه لم يعدم في نجابة غرس اليد، وإصابة طريق المصنع من ولاية أخلصها، ونصيحة أمحضها، وشكر أجنيه الغض من زهراته، وثناء أهدي

[1] الذخيرة 339/1/1
[2] الذخيرة 339/1/1

إليه العطر من نفحاته)).[1] ويختم الرسالة بالطلب من صديقه أن يسعى له عند الملك، وينقل ابن زيدون لابن مسلمة أنه يعرف كبه للخير للناس جميعاً فكيف به هو ويربطه به ((تداني الجدار وتصافي السلف والانتماء إلى أسرة الأدب)).[2] ويلح على صديقه أن لا ييأس من محاولة التوسط له وإن لم يستجب الأمير بدءا فلعل من الأسباب ما يمنعه: ((وإن عاق حرمان عادته أن يعوق عن الظفر، ويعترض دون الأمل، فأعلمه أيده الله أني في حالي العطلة مع غيره و التصرف، ويومي الإيطان والتطوف، كالمهتدي بالنجم حين عدم ذكاء، ومتيمم الصعيد إذا لم يجد الماء:

فإن أغش قوما أو أزرهم فكالوحش يدنيه من الأنس المحل![3]

ويختتم الرسالة بالدعاء للأمير ولصديقه وبالتحية لأبي عامر ((وأهدي إليك ندى الغض الناضر من سلامي، والأرج العاطر من تحيتي)).

القيمة الأدبية واللغوية للرسالة:

نلاحظ أن موضوع الرسالة لم يختلف عن موضوعات الشعر، فابن زيدون لا يزال يمدح الأمراء ويرجو نوالهم ويعرض بضاعته، مما يبين تأثر مبنى الرسالة عنده بشعره في إيجاد الغرض، وكذلك يلاحظ تأثر رسالته بالمراسلات الديوانية التي تعرف نفسية الأمراء والملوك ويتخذ أسلوباً يناسب مقامهم من مثل جعل الكاتب لنفسه أقل منهم في الفضل في كل شيء، حتى فيما يعرضه من مواهبه، وإن كان له فيها القدح المعلى. ونلاحظ الحالة

[1] المصدر السابق،340/1/1
[2] المصدر نفسه 340/1/1
[3] الذخيرة 340/1/1

المزرية التي وصلت إليها العلاقة بين ملوك الطوائف إلا ما تجرأ ابن زيدون في هجائهم جميعاً وجعل المعتضد بالنسبة لهم كأنه الشمس، فلو كان الأمر طبيعيا بين الملوك لما رضي المعتضد بهذا .

أما أسلوب ابن زيدون في هذه الرسالة فهو بين الرسالتين السابقتين، فهو لم يستسلم تماما للجمل المسجوعة كما فعل في رسالته لأبي عامر بن مسلمة، ولم تخل الرسالة منه تماما أو تكاد كما في رسالته لأستاذة. وإنما عمد للازدواج وهو أسلوب شائع في رسائله الأخرى، وفي هذه الرسالة خاصة ((ولكن المدقق في الازدواج لدى ابن زيدون يرى أنه أحفل بالسجع... فتجد ابن زيدون يقع فيه وهو يبني المزدوجات نفسها... فيصبح الازدواج عنده قاعدة تحتية للسجع... فيبرز السجع عنده بذلك بروزاً عليه منتجاً بذلك أسلوباً يمكننا أن نسميه السجع يغطي على الازدواج دون أن يقضي الإزدواجي))[1]، ومن أمثلته في هذه الرسالة: وما زلت – أبقى الله الحاجب – أتلقى مساعيه المشكورة، ويقرع سمعي بمأثره المأثورة، ما هو أندى من بلوغ الأمل، وأشهى من اختلاس القبل، وأغض من جني الزهر، وألطف من نسيم السحر، إلى أن ندبني الأديب أبو فلان إلى مخاطبته، وحرضني على مكاتبته، ونبّهني على ما في التثاقل من مداخلته من التضييع الصريح والتقصير البين الصحيح))[2]

وبالطبع فإن السجع قد كان ذوق عصره إلا أنه حاول أن يخلق لنفسه أسلوباً بين السجع والازدواج وقد كان ابن زيدون يعي قصده في الأساليب

[1] دراسات في الادب الاندلسي، ص 90
[2] الذخيرة 1/1/333-334

ويعرف منهجه، فله ذوقه الأدبي الذي عبر عنه في رسالته السابقة قال: فلو كنت الوليد بن عبيد براعة نظم، وجعفر بن يحيى بلاغة نثر، وإبراهيم بن المهدي طيب مجالسة لما كنت بسعة أحاطته إلا في جانب التقصير))[1] فمثاله في الكتابة الديوانية جعفر البرمكي وزير الرشيد وكاتبه. ويقول في هذه الرسالة ((ولو أني أوتيت في النثر غزارة عمرو، وبراعة ابن سهل، وأمددت بطبع البحتري وصناعة الطائي ما رددت إلى الحاجب إلا ما أخذت منه))[2] وهذا يعني ((أنه وإن كانت تعجبه غزارة الجاحظ في الكتابة إلا أنه يرى أسلوبه بسيطاً طلقاً يفتقر إلى البراعة أي إحكام الصياغة الذي كان يتميز به الحسن بن سهل وزير المأمون وكاتبه. وكل من الاسترسال والصنعة بالنسبة له أمران ضروريان في الشعر والنثر على خد سواء، وخير أديب هو الأديب الذي يتوفر لديه الاتساع العظيم في القدرة التعبيرية مع التمكن الشديد من جودة حوك الكلام قبل التفوه أو إثباته في الكتب)).[3]

مصادر الرسالة :

ولا نرى في هذه الرسالة جديداً على مصادره في سابقتها، إذ يبين أيضاً تأثره في بنائها بشعره وكذلك موضوعها. وكذلك يظهر في أسلوبه فيها تمثله للسابقين الكتاب كالجاحظ والحسن بن سهل وجعفر البرمكي وغيرهم. ويظهر فيها بوضوح أث عمله في الكتابة الديوانية، وقد قل فيها التضمين والاقتباس الذي ظهر بوضوح في رسائل أخرى كرسالته البكرية.

---

[1] المصدر السابق 339/1/1

[2] المصدر نفسه 338/1/1

[3] دراسات في الادب الاندلسي 92/91

المبحث الرابع :

الرسالتان العبّادّيتان

بعد أن نجحت مساعي ابن مسلمة في إقناع المعتضد بن عباد صاحب إشبيلية في أن يلتحق ابن زيدون بخدمته أرسل ابن زيدون أولا رسالة إلى المعتضد قبل أن يرحل إليه. يقول في أولها: ((أطال الله بقاء الحاجب فخر الدولة مولاي وسيدي، ومولى المناقب الجليلة، والضرائب النفيسة في أكمل ما تكفّل له به عُلوّ القدر ونفاذ الأمر...)).[1]

وقد نهج في هذه الرسالة نهجا يدل على طول درايته بمخاطبة الملوك، فاعتذر أولا عن أنه لم يكتب إليه مباشرة؛ بل توسل بأبي عامر بن مسلمة يقول: ((عداني أن يكون الكتاب في ذلك إلى الحاجب – أبقاه الله – التأدب بآداب حصفاء العبيد في الإجلال والإعظام وترك التبسط والإقدام))، ويردف هذا بقوله: ((قلماً استغنت أوائل مطالب الأتباع لحضرة الملوك عن وسائط تمهد لها وتعتمد أوقات الإمكان بها ... ولم يدعني إلى استطلاع ما قبله شك في كرمه ولا سوء ظنه. بسماحة شيمه)).[2] وبعد ذلك بين له أن السعادة برضا الملك عنه ستزيد إذا تشرف بلقائه ومشاهدته والنظر إلى غرته الزهراء.

واستعداداً للقاء الملك وتمهيدا له يعتذر له إذا بدر منه حصر يعجزه عن مشافهة الملك، يقول: ((فو الله ما ينصرف فكري ولا ينصرم حين من عمري إلا في الذكر له والشوق إليه وتصور المثول بين يديه، وأنا أقدم

[1] الذخيرة 341/1/1
[2] الذخيرة 431/1/1

الاعتذار من مهابة تستملك جناني، وحصر يكاد يقطع في أول المشافهة لساني))"[1].

وحتى لا يظن الملك أن ابن زيدون إنما يعتذر عن عيب أصيل عنده يقول له: ((فإن حدث ذلك فعذري عذر الفضل بن سهل وقد انقطع بين يدي الرشيد فقعال: يا أمير المؤمنين، من فراهة العبد أن يملك قلبه مهابة سيده))[2]، وهو يتنبأ بما سوف يجده الملك في هذا اللقاء، وما سوف يجده هو من الملك يقول: ((وسيفضي ذلك بمشيئة الله إلى ما يستجيزه الحاجب مولاي من إمتاع، ويقبله من شاهد، ويستطرفه من أدب ويستلطفه من إجمال طلب وجمال مذهب)) أما ما يجده هو فيذكره في قوله: ((سأصل إلى ما لم أعهد مثله من بهاء منظر، وسناء مخب، ورفعة شأن وعظم سلطان))[3] . وهو يرجو أن يوفق في إثبات ما ادعاه من صفات ثم يختم الرسالة بالدعاء للملك.

وبعد هذه الرسالة استقبله المعتضد وأكرم وفادته، وبعد مدة صدر عن حضرته إلى قرطبة ليزورها، فطالت إقامته هناك ، فكتب رسالة للمعتضد يشكره على ما لقيه عنده من حفاوة بالغة، يقول: ((يعلم الذي أسأله إعزاز مولاي، وإعلاء أمره، وصلة تأييده وتمكين نصره أتي لم أزل منذ فارقت حضرته الجليلة، حصره المجد والسيادة ومحل الإقبال والسعادة لهج اللسان بما أجناني من ثمار الحكمة والنعمة، وأفادني من عقد الأدب والنشب))،[4] ويذكر له أنه سعيد بما أصاب حاسديه من تصدع أكبادهم وتقطع أنفاسهم،

[1] المصدر السابق 342/1/1
[2] المصدر السابق 342/1/1
[3] الذخيرة 343/1/1
[4] المصدر نفسه 343/1/1

وتغير حالهم لما علموا ما أتحفه به من نعم، ولكنه لا ينسى أن يذكر الملك بوعوده له في ثوب من الطاعة يقول: ((والله يبقيه لعبيده، وأنا آخرهم في الخدمة وأولهم في شكر النعمة، ويرفع من همهم ما انخفض ويبسط آمالهم ما انقبض ولا يعدمهم التقلب في نعمه))[1] .

وقبل أن يختم الرسالة يعتذر عن إبطائه في العودة إلى إشبيلية، ولما لم يجد سببا يعتذر به قال: ((ولم تبق علة تسوغ باعتراضها الاعتذار إلا ما يتراخى ريثما يعاود أمره)) ثم يطلب الإذن من الملك في العودة إلى إشبيلية يقول: ((ولم أستأذن لأن الإذن بعد عهده وأن الميعاد لم يحكم عقده، بل تجنبت أن أدل بترك المشاورة أوأخل برسم المؤامرة))[2]. ثم يختتم الرسالة بالدعاء للملك .

القيمة الأدبية واللغوية للرسالتين:

يستنتج من هاتين الرسالتين اللتين خاطب فيهما ابن زيدون المعتضد بن عباد صاحب إشبيلية أنه اهتم فيها بمواهبه السياسية ومعرفته بدواخل الملوك. فطريقة المخاطبة له لم تكن مباشرة في البداية ، وحتى لا يظن الملك به الظنون من أنه ما كان واثقاً من قبوله له في جعله الوسيلة إليه وزيره أبا عامر؛ نسب ذلك إلى أنه من باب الأدب مع الملك في أن لا يخاطب مباشرة في الحاجة، فالوسيلة إليه غاية في الاحترام والتبجيل، ونلاحظ كذلك أنه لم يبدأ رسالته للملك بالتحية والسلام وإنما بدأها بالدعاء للملك وختمها به كذلك في حين أن جميع الرسائل الأخرى لأصدقائه كانت تبدأ بالتحية وتنتهي بها.

[1] المصدر السابق 344/1/1
[2] الذخيرة 344/1/1

ونلاحظ كذلك أنه آثر في رسالتيه الإيجاز على الاستطراد، وخلت رسالتاه من الاقتباس والتضمين. وكثرت فيها الجمل الدعائية. وقد قل فيها السجع جداً، وواضح فيها كذلك انتقاء الكلمات في المخاطبة. والاقتصار على الوصول لما يريده من غير تكلف ه. وقد أكثر من الاستدراك والاعتذار حتى لا ينقدح في ذهن الملك معنى لا يريده ابن زيدون.

مصادرهما:

يظهر أن المصدر الأول المؤثر في هذه الرسائل هو معرفة ابن زيدون بأصول المخاطبة الديوانية، لاسيما وأنه بهاتين الرسالتين يعرض مقدرته على المعتضد ليصبح كاتب دولته، وقد نجحت رسائله وشفاعة صاحبه في أن يمكث من بعد عند المعتضد زهاء عشر سنوات، كتب فيها من الرسائل ما وصفه ابن بسام بأنه بالمنظوم أشبه منه بالمنثور. ويتضح كذلك أثر شعره في بناء هذه الرسائل، فهي أشبه ببناء القصيدة، وأثر العاطفة في رسائله أكبر من أثر العقل فيها، ولا تزال تتحكم فيه أصول المدح للملوك وإظهار الضراعة والخضوع عند مخاطبتهم

خاتمة:

فهذه هي رسائل ابن زيدون الإخوانية التي وصلت إلينا. وحتى هذه الرسائل التي بين أيدينا جاء بعضها ناقصا لأن ابن بسام لم ينقلها كاملة لطولها، وحاول اختصار بعضها بتلخيص أهم أجزائها بنقل فقرات من كل جزء.

وقد وضح من هذه الرسائل أن طريقة كتابة ابن زيدون للرسائل قد تطورت بتطور حياته، فلا شك أنه كان يعنيه في بداية حياته الكتابية إثبات براعته وسعة حفظه وروايته، ومعرفته بأصناف الفنون التي يستعين بها الكتاب، لا سيما وأنه كان يرى أعلاما من» الكتاب هم دونه من مثل أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ وهو من هو في غزارة الحفظ وفي طريقة بناء الرسائل التي تأثر فيها لا شك بمذاهب المعتزلة

وأهل الكلام، ويذكر الحسن بن سهل وغيرهم ممن يستشهد بهم.

وقد رأينا أن هذه العناية الفائقة بالاقتباس والتضمين على قدرته عليها وتفننه فيها وهي سائغة في كلامه كأنها منه، إلا أنها بدأت تقل تدريجياً لما أحس بعدم حاجته لها أو لكثير منها، ولتمكنه من ناصية الكتابة بعد أن أصبح أسلوبه نفسه أداة من أدوات الإقناع، وبعد أن اشتهر قلمه بين الناس وأصبح ذا أسلوب خاص به.

وقد أوضح لنا أيضاً أن رسائله قد تخلصت بكثرة الدربة من الإطالة، وأصبحت إلى الإيجاز أقرب وكذلك إلى توصيل المعاني المقصودة. ولا شك أن المعتضد بن عباد للكتابة الديوانية التي مارسها عقودا من الزمن مع بني جهور ومع أثرها في ذلك. وكذلك فقد قل السجع كثيرا في رسائله . وقد وقفنا على القيمة الأدبية واللغوية لهذه الرسائل كلا على حدة بما أغنى عن إعادتها في هذا المقام.

المصادر والمراجع:

1) الأدب العربي في الأندلس، د. عبد العزيز عتيق، ط 2، دار النهضة العربية بيروت،1976م .
2) أعمال الأعلام، لسان الدين بن الخطيب، تحقيق ل. بروفنسال، بيروت، 1956م .
3) بلاغة العرب في الأندلس، أحمد ضيف، مطبعة مصر القاهرة 1924م.
4) البيان المغرب، ابن عذارى المراكشي ج 3 تحقيق كولان وبروفنسال، باريس 1929م.
5) تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، تحقيق د. احسان عباس، ط 7 دار الثقافة بيروت 1985م .
6) تبصرة الحكام، القاضي إبراهيم بن علي بن فرحون، طبع مصر 1301 3O2اهـ
7) تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون للصفدي، تحقيق ممد أبي الفضل، القاهرة 1969م
8) دراسات في الأدب الأندلسي، د. أحسان عباس وآخرون، الدار العربية للكتاب، ليبيا تونس 1976م.
9) ديوان ابن زيدون، ابو الوليد بن زيدون، ومعه أخباره ورسائله، تحقيق كيلاني، ط 2، مطبعة مصطفى البابي الحلبي 1956م .

10) ديوان ابن زيدون مع رسائله وأخباره وشعر الملكين، شرح وضبط وتصنيف كامل كيلاني وعبد الرحمن خليفة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده،1932م.

11) ديوان ابن زيدون ورسائله، شرح وتحقيق علي عبد العظيم، مكتبة نهضة مصر بالفجالة 1957م .

12) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، مطبعة التأليف والترجمة والنشر،1939م ،القسم الأول، المجلد الأول والثاني.

13) ابن زيدون، د. شوقي ضيف ، ط 2، دار المعارف بمصر د.ت.

14) ابن زيدون شاعر قرطبة، الدكتور محمد صبح، منشورات المعهد الأسباني العربي للثقافة في مدريد 1979م .

15) ابن زيدون عصره وحياته وأدبه، علي عبد العظيم، مكتبة الأنجلو المصرية 1955م.

16) سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، جمال بن نباته تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، القاهرة 1964م .

17) الصلة لابن بشكوال تحقيق. ومراجعة عزت العطار الحسيني مكتبة الخانجي القاهرة 1955م .

18) الفن ومذاهبه في النثر العربي، د. شوقي ضيف ط 6 دار المعارف بمصرد.ت.

19) قلائد العقبان ومحاسن الأعيان، الفتح بن خاقان، تحقيق الدكتور حسين خريوش ط مكتبة المنار، الأردن 1989م .

20) مجمع الأمثال، أبو الفضل الميداني تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، ط 2، دار الجيل بيروت 1987م .
21) المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد (1– 2)، تحقيق الدكتور شوقي ضيف، القاهرة 1953م.
22) ملامح التجديد في النثر الاندلسي خلال القرن الخامس الهجري، د. مصطفى السيوفي، ط 1، عالم الكتب 1985م .
23) "نفح الطيب للمقري التلمساني، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت 1986م
24) الوافي بالوفيات، صلاح الدين الصفدي، ج 7، تحقيق الدكتور إحسان عباس، فيسبادن 1969م .